

الفصل الرابع

الدين والناس والحياة

الغاية والوسيلة :

ماذا يريد الإنسان فى هذه الحياة ؟ . . . ؟ :

إنه يريد - أولاً - تحقيق مطالبه الفطرية والغريزية . . .

ثم هو يريد الأمن والسلام والحرية ، والفرح ، والمتعة ، والحياة المستمرة . . .

إنه - باختصار - يريد السعادة الأبدية .

وهو بالطبع لا يريد مضادات السعادة الابدية من أحزان وآلام وموت وعذاب . . .

إن الإنسان لا يريد الشقاء .

والمؤمنون - كبشر - ليسوا خروجا عن هذه القاعدة ، فهم يبحثون عن السعادة ويسعون جاهدين من أجلها ، وإن اختلفت مفاهيمها لديهم - فى بعض الأحيان - عن تلك التى يسعى من أجلها غيرهم .

وتحدثنا الكتب المقدسة عما يسعد الإنسان ويشقيه ، فتعده بالأولى إذا سار مع الله ، وتوعده بالثانية إذا تمرد على المنهج الإلهى ، وجعل الشيطان له قرينا .

* *

ونتبين من التوراة مطالب السعادة التى يريجوها الإسرائيليون ، وذلك من أقوال الرب التى جاء بها موسى :

« إذا سلكتم فى فرائضى وحفظتم وصاياى وعملتم بها : أعطى مطركم

فى حىنه ، وتعطى الأرض غلتها ٠٠ فتأكلون خبزكم وتسكنون فى أرضكم
آمنين ٠٠ وتطردون أعداءكم بالسيف ٠٠ وألثفت إليكم وأثمركم وأفى ميثاقى
معكم ٠٠ وأكون لكم إلهًا وتكونون لى شعبا - لاويين ٢٦ : ٣ - ١٢ » ٠

كما تحدد لنا التوراة عناصر الشقاء التى يحذرنا الإسرائيليون ، من قول

الرب :

« لكن إن لم تسمعوا لى ، ولم تعملوا كل هذه الوصايا ، وإن رفضتم
فرائضى ، وكرهت أنفسكم أحكامى ٠٠ فإنى أعمل هذه بكم : أسلط عليكم
رعبا وسلا وحمى تبنى العينين وتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فىأكله
أعداؤكم واجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم
مبغضوكم ٠٠ وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس ٠٠ وأصير مدنكم
خربة ٠٠ وأذريكم بين الأمم ، وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ٠٠
والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أرض أعدائهم ٠٠ فتهلكون بين
الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم - لاويين ٢٦ : ١٤ - ٣٨ » ٠

ومن هنا نتبين أن السعادة والشقاء فى دين الإسرائيليين - وهو

ما اصطلح على تسميته باليهودية - إنما هى أمور تتعلق بالحياة الدنيا .

فاليهودى لا يرجو إلا نعيم الدنيا ، وهو لا يحذر إلا شقاءها .

* *

أما الإنجيل ، فلا ترجى فيه السعادة إلا فى الحياة الآخرة ، فلقد قال

المسيح فى موعظته الشهير :

« طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن

لأنكم تشبعون ، طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون - لوقا ٦ : ٢٠ -

٠ « ٢١

« لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ٠٠ بل

اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ٠ متى ٦ : ١٩ -

٠ « ٢٠

كذلك لا يحذر الإنسان شقاء إلا شقاء الآخرة :

« إن أعثرتك يدك فأقطعها . خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضى إلى جهنم إلى النار التي لا تطفأ ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ .

وإن أعثرتك رجلك فاقطعها . خير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن تكون لك رجلان وتطرح فى جهنم فى النار التي لا تطفأ ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ .

وإن أعثرتك عينك فاقطعها . خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح فى جهنم النار ، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ - مرقس ٩ : ٤٣ - ٤٨ » .

ويذكر الإنجيل بوضوح على لسان المسيح ، أنه محال الجمع بين نعيمى الدنيا والآخرة . ولذلك كانت حملته شديدة على الأغنياء وأصحاب الممتلكات الدنيوية ، إذ اعتبرهم قد استوفوا نعيمهم فى الدنيا ، ولم يبق للأغلبية الساحقة منهم - إن لم يكونوا جميعهم - سوى عذاب الآخرة :

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . لا تقدر أن تخدموا الله والمال .

لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون - متى ٦ : ٢٤ - ٢٥ » .

« ما أعسر دخول ذوى الأملاك إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله - مرقس ١٠ : ٢٣ - ٢٥ » .

* *

وأما فى القرآن ، فيستطيع المسلم أن يحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ *

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠١] .
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الاعراف : ٣٢] .

ولقد جمع إبراهيم أبو الأنبياء بين خيري الدنيا والآخرة ، إذ قال الله فيه .
﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي
الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

والإسلام يحث المسلم على السعى من أجل الغنى وكثرة المال ، يطلبه
بالطرق المشروعة وينفق منه في أعمال الخير المشروعة . فيسعد دنيا وأخرى
ويسعد الآخرين :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء :
١٠٠] .

﴿ فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَّ
اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ [النساء : ٩٥] .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٤] .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا
حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٥] .

ولقد جعل الله طاعته وسيلة للحياة السعيدة بأموالها الوفيرة وإمكاناتها
المتنوعة . فكان قول نوح . وغير من المرسلين - لمن أرسل إليهم :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿ [نوح : ١٠ - ١٢] .

وكان قول هود لقومه عاد :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢] .

ولقد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الفقر وجعله قرينا للكفر ، فقال :

« اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر » (١) .

وقال : « كاد الفقر أن يكون كفرا » (٢) .

وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

فاليد العليا التي تعطى خير من اليد السفلى التي تأخذ الصدقة

أو العطية .

وقال لسعد بن أبي وقاص : « إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن

تدعهم عالة يتكفون الناس في أيديهم » (٣) .

*

وعلى المسلم أن يقيم علاقات متوازنة بين مطالب الدنيا والآخرة كل على

قدره ، فيحصل بذلك على السعادة فيهما ، ولذلك سجل القرآن الكريم هذا

القول الحكيم :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

[القصص : ٧٧] .

ولم يكلف المؤمنون بالله أن يعذبوا أنفسهم في الدنيا على أن يعوضوا عن

ذلك في الآخرة ، فلهم أن يعملوا لسعادتهم في الدنيا بجانب عملهم لسعادة

الآخرة :

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس .

(١) رواه أبو داود وغيره .

(٣) رواه البخاري .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الاعراف : ٩٦] .

*

وحين يتمرد الإنسان على منهج الله فعليه أن يتوقع الشقاء ، لا في الآخرة
فحسب بل في الدنيا كذلك :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ﴾ [التوبة : ٧٤] .

هذا - ولما كانت الحياة الآخرة حياة الأبد ، وكانت الحياة الدنيا قصيرة
فانية ، كان على المؤمن العاقل أن يوجه همه إلى الآخرة وأن يستخدم الدنيا
وسيلة تعينه على تحقيق سعادته في الآخرة . من أجل ذلك كان على المسلم أن
يعترف بسعادة الدنيا والآخرة ، ولكن عليه أن يؤثر ما في الآخرة على الدنيا ،
وعليه كذلك أن يعترف بشقاء الدنيا والآخرة ، إلا أن ما في الآخرة أشد
وأقسى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات :
٣٧ - ٤١] .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ،
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾
[الأنعام : ٨٢] .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام :

١٢٧] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا ، وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [لقمان : ٨ ، ٩] .

* *

وخلاصة القول فى النظر إلى سعادة الإنسان وشقائه ، إنها فى اليهودية دنيوية بحتة ، وهى فى المسيحية أخروية فحسب ، بينما هى فى الإسلام تجمع بين هذا وذاك مع ترجيح ما فى الآخرة على ما فى الدنيا .

* * *

حدود الرسالة

حدود رسالة موسى :

ولد موسى من أبوين إسرائيليين ، وتربى فى قصر فرعون ، ونشأ بين المصريين . وفى هذا يقول سفر أعمال الرسل : « تهذب موسى بكل حكمة المصريين وكان مقتدرا فى الأقوال والأعمال ولما كملت له مدة أربعين سنة خطر على باله أن يفتقد إخوته بنى إسرائيل - ٧ : ٢٢ - ٢٣ » .

لقد اضطرته الظروف أن يهرب إلى أرض مدين - بعد أن قتل مصرىا - ، وهناك تزوج وأنجب ذرية . « وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلَيْقَة .

فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار . . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . . فلما رأى الرب أنه مال ، ناداه الله من وسط العليقة . . ثم قال : إنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . . قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم . . فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر . خروج ٣ : ٢ - ١٠ » .

وهكذا كانت رسالة موسى إلى بنى إسرائيل ، وبنى إسرائيل وحدهم دون سواهم . وهكذا تختص الديانة اليهودية بالقبيلة الإسرائيلية وحدها دون سواها .

ولقد أقام الله لهم أنبياء من بعد موسى يهدوهم إلى طريق الله ويقيّمون فيهم التوراة ، ولكنهم عبر العصور كانوا الشعب المتمرد والأمة العاصية . فها هو النبى أشعيا الذى جاء بعد موسى بنحو خمسة قرون ينقل لهم وحى الرب قائلًا :

« الرب يتكلم : ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علىّ . الثور يعرف قانيه ، والحمار معلف صاحبه . أما إسرائيل فلا يعرف . شعبى لا يفهم .

- وبل للأمة الخاطئة ، الشعب الثقيل الإثم ، نسل فاعلى الشر ، أولاد مفسدين .
- تركوا الرب ، استهانوا بقُدّوس إسرائيل ، ارتدوا إلى وراء . . . تزدادون زيغانا .
- كل الرأس مريض وكل القلب سقيم – أشعيا ١ : ٢ - ٥ » .

* *

حدود رسالة المسيح :

جاء المسيح رسولاً إلى بنى إسرائيل وإلى بنى إسرائيل وحدهم دون سواهم . وفى هذا تقول الأسفار المسيحية :

١ - قبل أن تحمل مريم العذراء بابنها المسيح ، كانت بشارة الملاك إليها تبين أن رسالة المسيح تختص بالشعب الإسرائيلى فقط ، إذ قال لها :

« ستحبلين وتلددين ابنا . . . يعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه . ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه نهاية - لوقا ١ : ٣١ - ٣٣ »
ومن المعلوم أن المسيح لم يملك على بيت إسرائيل يوماً واحداً ، لأن مملكته لا تعنى سوى رسالته وسلطانه الروحى . فقد قال بوضوح : « مملكتي ليست من هذا العالم - يوحنا ١٨ : ٣٦ » .

« وأما يسوع ، فإذ علم أنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا ، انصرف أيضا إلى الجبل وحده - يوحنا ٦ : ١٥ » .

٢ - ولقد حدد المسيح لنفسه ولتلاميذه ، مجال عمله ودائرة التبشير التى ينبغى التجول فيها ، فبين بكل وضوح أن رسالته تختص بالشعب الإسرائيلى فقط ، فقال قولته الشهيرة : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة - متى ١٥ : ٢٤ » .

وكان ذلك هو أمره المؤكد إلى تلاميذه : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة - متى ١٠ : ٥ - ٦ » ومن الملاحظ أن المسيح قد أخرج السامريين من دائرة عمله ، رغم أنهم

يؤمنون بموسى والتوراة ، كما سبق أن أخرج الأعميين الذين لا يؤمنون بموسى والتوراة .

٣ - وإذا ما انقضت هذه الحياة ، ثم جاء يوم القيامة ، فإن دينونة المسيح وتلاميذه تنحصر في أسباط إسرائيل الاثني عشر . فلقد سأل بطرس : « ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم أنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده ، تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر - متى ١٩ : ٢٧ - ٢٨ » ورغم هذا الوضوح في تحديد دائرة التبشير المسيحي الحقيقي ، فإننا نجد إنجيل مرقس ينسب للمسيح قوله لتلاميذه ، كتعليم أخير : « اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها - مرقس ١٦ : ١٥ » ونسب إليه مثل ذلك في خاتمة إنجيل متى (٢٨ : ١٩) ، وكذلك إنجيل لوقا (٢٤ : ٤٧) .

إن حقيقة هذه الأقوال التي تتحدث عن تبشير العالم بالإنجيل تنضح حين نعلم الآتي :

إن خاتمة إنجيل مرقس التي تتكلم عن ظهور المسيح - الأعداد من ٩ إلى ٢٠ ، والتي تشتمل على العدد ١٥ الذي يتكلم عن تبشير العالم بالإنجيل - ليست من عمل مرقس كاتب ذلك الإنجيل ، ولكنها إضافات أدخلت إليه حوالي عام ١٨٠ م ، أى بعد أن سطر مرقس إنجيله بنحو ١٢٠ عاما .

يقول نينهام في تفسيره لإنجيل مرقس : « إنه على الرغم من أن هذه الأعداد (٩ - ٢٠) تظهر في أغلب النسخ الموجودة لدينا من إنجيل مرقس (مثل نسخة الملك جيمس وغيرها) إلا أن الترجمة القياسية المراجعة مصيبة تماما في اعتبارها غير شرعية ، منزلة إياها من النص إلى الهامش . . . إن هذه الفقرة لا يمكن تحديد تاريخها بالضبط ، ويمكن القول بأنها أصبحت تقبل كجزء من إنجيل مرقس حوالي عام ١٨٠ م » (١) .

(1) D . Nineham : Saint Mark . PP . 449 - 450.

وبالنسبة لما جاء فى خاتمة إنجيل متى (٢٨ : ١٩) من حديث عن التبشير بالإنجيل بين جميع الأمم ، فإن العلماء يشكون فيها لأسباب يذكر منها العالم الألمانى الكبير ادولف هرنك : « لم يرد إلا فى الأطوار المتأخرة من التعاليم المسيحية ، ما يتكلم عن المسيح وهو يلقى مواعظ ويعطى تعليمات بعد أن أقيم من الأموات ، وأن بولس لا يعلم شيئاً عن هذا .

وأن صيغة التثليث هذه (التى تقول : عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس - وهى الشطر الثانى من العدد ١٩) غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ فى عصر الرسل ، وهو الشئ الذى كانت تبقى جديدة به لو أنها صدرت عن المسيح شخصياً » (١) .

وبالنسبة لما جاء فى خاتمة إنجيل لوقا عن تبشير جميع الأمم ، فإن القارئ يستطيع الحكم على مصداقية الفقرة التى تشتمل على ذلك بمجرد قراءتها ، فهى تنسب للمسيح قوله : « كان ينبغى أن المسيح يتالم ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث . وأن يركز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم - ٢٤ : ٤٦ - ٤٧ » .

ومن المعلوم - حسب روايات الأناجيل الثلاثة متى ومرقس ولوقا ، أن المصلوب علق على الصليب يوم الجمعة ، ووجدت المقبرة خالية فجر الأحد . وبالحساب البسيط يتبين أنه لم يدفن « فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال » ، حسب النبوءة التى أوردها متى فى ١٢ : ٤٠ ، وإنما كانت مدة الدفن - حسب قول الأناجيل : يوم واحد ، وليلتان ، على أحسن الفروض . وبذلك تكون مصداقية الحديث عن تبشير جميع الأمم بالإنجيل ، مساوية تماماً لمصداقية الحديث عن القيامة فى اليوم الثالث ، وهو شئ لا يتفق وأبسط الحسابات ولهذا لا توجد مصداقية لهذه الأقوال وما شابهها .

*

(1) A . Hamack : HISTORY OF DOGMA , vol . I , p . 79 .

بهذا يتبين من دراسة الأناجيل أن رسالة المسيح خاصة « بخراف بيت إسرائيل الضالة » ولا غير .

* * *

هذا - وحين نتتبع النشاط التبشيري لتلاميذ المسيح ، بعد رفعه ، نجده منحصرًا في اليهود . أن هذا ما ينطق به سفر أعمال الرسل قبل دخول بولس مجتمع التلاميذ . ومن أمثلة ذلك :

« أما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس ، فاجتازوا إلى فينيقية وقبرس وأنطاكية ، وهم لا يكلمون أحدا بالكلمة إلا اليهود فقط - أعمال الرسل ١١ : ١٩ » .

« فهذان (برنابا وبولس) سافرا في البحر إلى قبرس . ولما صارا في سلاميس ناديا بكلمة الله في مجامع اليهود - أعمال الرسل ١٣ : ٤ - ٥ » .
« أتيا (بولس وسيلا) إلى تسالونيكي حيث كان مجمع اليهود ، فدخل بولس إليهم حسب عادته ، وكان يحاجهم ثلاث سبوت من الكتب - أعمال الرسل ١٧ : ١٠ - ١٢ » .

ولما يئس بولس من التبشير بين اليهود خراف بيت إسرائيل الضالة - فقد فضل أن ينتقل للتبشير بين الأمم الأخرى ، بدافع من نفسه . فقد كان « يشهد لليهود بالمسيح يسوع ، وإذ كانوا يقاومون ويجدفون ، رفض ثيابه وقال لهم : دمكم على رؤوسكم . أنا بريء . من الآن أذهب إلى الأمم - أعمال الرسل ١٨ : ٥ - ٦ » .

وبهذا يتبين أيضا أن تلاميذ المسيح مارسوا التبشير بين اليهود فقط ، حتى جاء بولس الذي خرج بالمسيحية إلى العالم ، مخالفا قول المسيح : « ما جئت إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة » .

ويترتب على ما سبق أن تعاليم المسيح ومواعظه ، وحتى تشريعاته - إن صح هذا التعبير - لا بد أن توجه إلى الإسرائيليين ، ووفق مفاهيم إسرائيلية ، ولا علاقة لها بالرومان ، حكام فلسطين آنذاك ، أو القانون الروماني .

* * *

المسيح لم يأت بشريعة جديدة :

لقد أعلن المسيح فى مستهل دعوته الإطار العام لتعاليمه ، فقال مخاطبا الجموع التى تبعته ووقفت تستمع إليه من بنى إسرائيل :

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء • ما جئت لأنقض بل لأكمل • فإننى الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل •

فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا ، يدعى أصغر فى ملكوت السموات • وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات - متى ٥ : ١٧ - ١٩ » •

وفى نهاية دعوته ، دعا المسيح تابعيه وكل بنى إسرائيل أن يتمسكوا بكل ما يأمرهم به الحفاظ على شريعة موسى من كتبة وفريسيين ، وفى هذا يقول الإنجيل :

« حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالسوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه • ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا ، لأنهم يقولون ولا يفعلون - متى ٢٣ : ١ - ٣ » •

وبين بداية دعوة المسيح ونهايتها ، نجده فى كل حين مرتبطين تماما بناموس موسى ، حريصا عليه ، داعيا إلى الاستمسك به ، بدءاً من الوصايا حتى أدق تفاصيل الشريعة اليهودية •

لقد تقدم إليه واحد قائلا : « أيها المعلم الصالح ، أى صلاح عمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ » •

فقال له : لماذا تدعونى صالحا ! ليس أحد صالحا إلا واحد ، وهو الله •

ولكن أن أردت أن تدخل الحياة ، فاحفظ الوصايا •

قال له : أية الوصايا ؟ •

فقال يسوع : لا تقتل . لا تزني . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك
وأماك ، وأحب قريبك كنفسك - متى ١٩ : ١٦ - ١٩ » .
وحين شفا أبرصا قال له : « اذهب أر نفسك للكاهن ، وقدم عن تطهيرك
ما أمر به موسى شهاة لهم - مرقس ١ : ٤٤ » .
« وقال له واحد من الجمع : يا معلم ، قل لأخي أن يقاسمني الميراث .
فقال له : يا إنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو مقسما ! - لوقا ١٢ :
١٣ - ١٤ » .

من هذا - وغيره - يتبين أن المسيح لم يأت بشريعة جديدة ، وإنما جاء
ليحافظ على شريعة موسى وتعاليم النبيين من بعده ، ويدعو بنى إسرائيل
إلى السمو الأخلاقي والتخفيف من الماديات . فإذا كانت شريعة موسى تسمح
بالقصاص ، وهذا حق وعدل ، فالأفضل منه ولا شك العفو والتسامح . . .
وهكذا .

*

لكننا نجد في الأناجيل تشريعات تُنسب للمسيح ، تناقض تشريعات
موسى وتهدمها من أساسها .
إن ناموس موسى يسمح بالطلاق ، ويجعله حقا مقصورا على الزوج ، دون
الزوجة . وفي هذا يقول :
« إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد
فيها عيب شئ ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ،
ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر .
فإن أبغضها الرجل الأخير ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها
وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة ، لا يقدر
زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة - تثنية ٢٤ : ١-٤ » .
فهذا إنجيل مرقس ينسب للمسيح تعليما يقول فيها للفريسيين الذين
حاولوا استدراجه والإيقاع به :

« من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها . وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بأخر تزنى - ١٠ : ١١ - ١٢ » .

ولقد ورد هذا القول فى إنجيل متى بصيغة مغايرة مع التكرار فى موضعين مختلفين : الأول : فى موعظة الجبل ، فى ٥ : ٣١ - ٣٢ ، والثانى : فى موضع الاستدراج من الفريسيين ، فى ١٩ : ٩ .

فهنا نجد الطلاق مسموحا به فى حالة واحدة ، هى حالة ارتكاب الزوجة - وليس الزوج - جريمة الزنا ، فقال فى الإصحاح رقم ٥ : « إن من طلق امرأته إلا لعل الزنا - يجعلها تزنى . ومن يتزوج مطلقة فأنى يزنى » .

ثم جاء هذا القول بصيغة مغايرة فى الإصحاح رقم ١٩ ، حيث سكت عن أن طلاق الرجل امرأته ، إلا لعل الزنا ، يجعلها تزنى ، واستبدل ذلك بالحديث عن الزوج الذى يطلق امرأته ويتزوج بأخرى ، فقال :

« إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى . والذى يتزوج بمطلقة يزنى » .

وقد اتفق لوقا (١٦ : ١٨) مع مرقس ومتى فى أشياء ، وخالفهما فى أشياء . . . فهو قد اتفق مع مرقس فى أن : « كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى » .

واتفق مع متى فى أن « كل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى » ، خلافا لمرقس الذى لم يذكر شيئا من هذا .

لقد نسب كتبة الأناجيل للمسيح أقوالا متناقضة مثل قوله :

« زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس . كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى . وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى - لوقا ١٦ : ١٧ - ١٨ » .

ففى الشطر الأول من هذا القول نجد المسيح يؤكد على التمسك بالناموس واستحالة نقض تعاليمه ؛ بينما هو ينقض الناموس فى الشطر الأخير من قوله وذلك بمنع الطلاق الذى يسمح به الناموس .

يقول جورج كيرد في تفسيره للإنجيل لوقا : « إن الكلمة التي ترجمت (نقطة) تعنى حقيقة خطأ دقيقا أو ذبلا زخرفيا فى أعلى حرف الكتاب أو أدناه . وحين يقال إنه لا يمكن إلغاء الذيل الزخرفى لحروف الناموس ، فإن هذا يعنى أن كل الناموس ، كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، بكل دقائقه وزخارفه العبرية ، تبقى سارية المفعول إلى الأبد . أن هذا يمكن أن يقوله أى حبر ، لكننا لا نستطيع تصوره على شففى يسوع ، وخاصة فى ضوء الواقع ، إذ أن العبارة التالية لهذا القول تتضمن تغييرا فى ناموس موسى خاصا بالطلاق . . . إن ما ذكره مرقس فى ١٠ : ١ - ١٢ ، يساعدنا على إدراك أن يسوع لم يكن يشرع ؛ لكنه كان يشير إلى المعايير الأخلاقية العليا التى تصبح فى مقدور أولئك الذين يعيشون بنعمة الملكوت وقدرته .

لقد قال يسوع إن موسى سمح بالطلاق بسبب قساوة قلوبكم : فحيثما تكون قساوة القلب تنحل الزيجات ، ويجب أن يحمى الطلاق المجتمع من شر أكبر . . . ولكن ، هناك فقط فى الملكوت ، حيث يوجد الشفاء من قساوة القلب ، يصبح المثل الأعلى قابلا للتطبيق » (١) .

وهكذا يتبين ضرورة إعادة النظر فى كثير من المفاهيم المسيحية التى صار مسلمات عند الملايين عبر القرون ، وثبت عدم صحتها بعد الدراسة والتمحيص .

* *

حدود رسالة محمد :

لقد قال المسيح فى الإنجيل : « تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى - يوحنا ٧ : ١٦ » .

« لأنى لا أتكلم من نفسى ، لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم - يوحنا ١٢ : ٤٩ - ٥٠ » .

ولقد حدد الله رسالة المسيح فأعلن على لسانه :

« لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة - متى ١٥ : ٢٤ » . وهذا

(1) G . Caird : Saint Luke , PP . 189 - 190 .

الأسلوب اللغوي - أسلوب الحصر - القائم على النفي والاستثناء ، يحصر رسالة المسيح فى بنى إسرائيل وحدهم دون سواهم .

وبنفس هذه الصيغة حدد الله رسالة نبيه محمدا فقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١ - ٢] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ : ٢٨] .

ولقد أمر الله رسوله محمدا أن يعلم الناس بهذه الحقيقة ، فقال له :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

تلك حدود رسالة الإسلام وحقيقتها . فهى دعوة عالمية لكل الناس ،

ولهذا حفل القرآن بمخاطبة الناس جميعا فى مثل قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ١٧٤ - ١٧٥] .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٩] .

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

*

لقد قامت الأسفار اليهودية والمسيحية على بنى إسرائيل وحدهم دون
سواهم ، وكان أمم الأرض الأخرى ليس لها من رحمة الله نصيب . لكن القرآن
يعلمنا غير ذلك ، فيؤكد لنا عناية الله بخلقه أجمعين . وهذا بعض ما يقال في
هذا المجال :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ
أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[البقرة : ٢١٣] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

[فاطر : ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾

[النساء : ١٦٤] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

* * *

هذا - ومن الجدير بالذكر أن محمدا رسول الله ﷺ قام يدعو الناس على مراحل وفق تسلسل منطقي . فبدأ بدعوة أهل بيته أولا فأمنت زوجته خديجة وربيبه وابن عمه الصبي على بن أبي طالب ، ثم صديقه الحميم أبو بكر بعد ذلك انطلق يدعو عشيرته الأقربين ، ثم قبائل العرب قريبا وبعيدها . ثم كانت الهجرة إلى المدينة ودعوة اليهود وغيرهم وخاصة وفود النصارى التى قدمت إلى المدينة .

وفى أواخر السنة السادسة من الهجرة - السنة التاسعة عشرة من بدء الرسالة - حين رجع رسول الله من صلح الحديبية ، كتب إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام . واختار من أصحابه رسلا ذوى معرفة وخبرة فى حمل مثل هذه المهمات الجليلة . فكتب رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وإلى كسرى ملك فارس ، وإلى هرقل قيصر الروم ، وإلى ملك عُمان وحاكم البحرين وغيرهم .

فبهذا - وغيره كثير - كانت دعوة الإسلام عالمية ، وانطلقت هكذا عبر القرون ، وفق التعاليم والتطبيقات .

هذا ولعل خير ما نختم به هذا البحث - الذى دار حول موضوع : الإسلام والأديان السماوية ، معطيا موجزا مُركّزا لنقاط الاتفاق والاختلاف - هو أن نقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] .

* * *